(مجموعة رسائل)

رسائل يوسف

أيوب نبري

رسائل يوسُف

© 2020 منشورات كتبيديا – إحدى مشاريع كتبيديا

كافة الحقوق محفوظة للناشر

يمنع إعادة إصدار، نقل أو توزيع هذا المصنف بأية وسيلة ورقية أو رقمية

دون إذن مسبق من الناشر

رسائل يوسف

(أيوب بنبري)

إهداء

إلى كل من اعتاد أن يقرأ إهداءات المؤلفين في

الصفحات الأولى من كتبهم...

إهدائي في الرسالة الأخيرة!

مقدمة لابد منها

حسنا، لنهدأ جميعنا قليلا ولنتفق على أنني رجل مريض!

لا تكن وقحا، ألا يمكنك أن تتوقف عن النظر إلى السواد تحت عيني، وعلب السجائر التي تملأ المكان، معظمها فارغ في الحقيقة، نعم لقد استهلكتها كلها، لكن هذا لن يغيّر شيئا حول ما سأقوله، فتوقف عن التحديق هكذا كالأبله واستمع لما أقول قبل أن يأتي..

لا تلفظ اسمه، لا أحد له الحق في أن يسميه يوسف عداي أنا، سمّه أنت مرضا أو خللا أو انفصاما أو عبقرية، لكن إياك أن تدعوه باسمه!

إذن كنت أحاول أن أجعلك تفهم أنني رجل مريض رغم أنك تعلم ذلك من البداية، لكني لست مسؤولا عن ذلك صدقني، أنا كنت طفلا مثلما كنتَ تماماً، غير أن ظروف نشأتنا جاءت مختلفة، فأصبحت أنت مثقفاً تقرأ كتابي المحشو بالطلاسم معتقداً أنه رسائل أدبية، وأصبحتُ أنا عبداً ليوسف.

لم يكن من المفترض أن تصبح الأمور هكذا، لكنه خرج عن سيطرتي، لقد أصبح هو من يتحكم بي، فاستسلمت له مرغماً.

أنا أكرهك يا محمد، أكره زوجتك أيضاً..

لا مهلاً، أنا لا أكرههما، لأنني ميت منذ اثنتي عشرة عاماً، ربما يوسف هو من قالها الآن، أنا لا دخل لي.

لا تنظر إلي هكذا من فضلك! نحن لسنا نفس الشخص، أنا ولدت في الرابع عشر من تشرين الأول، وهو في الخامس عشر من آذار.. أقسم لك بالسواد الذي يحيط بي هنا في العدم.

أنا أحلم أن أتابع دراستي بماليزيا، وأصبح مدرساً للإعلام الآلي.. أما يوسف فيحلم أن يكمل كافة مخططاته الانتقامية، ويسدد مستحقاته البكائية مع هذا المجتمع ثم ينتحر بطريقة لم يعرفها البشر قبلاً.

أترى، نحن لسنا نفس الشخص، في الحقيقة لم نكن كذلك يوماً!

سيجارة حزينة

(1)

لم أكن أخاف يا صديقي، لقد كنت أنا مصدر الخوف!

لنشعل سيجارة...

لعلك توافقني عندما أقول أن هذا المجتمع لا يعترف بالأمراض عدا ما يظهر منها على البدن، وبذلك فإنه لن يفهم تقلبات قلبك إلا في غرفة العمليات!

ناولني فنجان القهوة...

أحب هذا الشعور، شعور التدخين الممزوج بالقهوة، وشعور المشي ليلا وسط الطريق والاقتراب من السيارات المارة.

لقد مكثت مدة ليلتين أفكر في طريقة انتحار تليق برجل مثلي، أنت تعلم أننا لازلنا نعيش وفق طبقات اجتماعية محددة، فلا يجوز مثلا لشخص مثقف مثلك أن ينتحر غرقا رغم أنها تبدو فكرة جيدة! لم أجد بعد طريقة ملائمة، وليلة الخميس غير مناسبة للانتحار أصلا، ففيها يتوسد العشاق زوجاتهم، والعزاب علب البيرة، لكنهم لا ينتحرون خلال ذلك.

أقول أني لم أجد طريقة، وها أنا إذا أجالسك، لأنك الوحيد الذي تفهم شكل مرضي، وهذا طبعا لأنك مجرد ورقة لا تملك سطوة نبذي كما يفعل البشر.

أن تكون ورقة يعني الكثير، بالنسبة لي على الأقل، إنه يعني أن لدي حق اللجوء إليك كلما تحطم داخلي المنهك، وأنك -بحكم طبيعتك الفيزيائية- تقف صامتا أمام كلامي الممزوج بالدموع ومشاعر الغضب... والندم.

في النهاية أنا لا أبحث عمن يقدم لي حلا، لأن المسخوطين أمثالي يفكرون في كل مشكلة على حدى، أولا نبحث عمن يسمعنا، ثم نستجديه حلا، وأنا لم أجد بعد من يسمعني إلا كتابةً.

سيدي الفاضل، وسامعي..

إن جهابذة اللغة سينكرون نصي، حيث أنك في قواميسهم ورقة تجيء مؤنثة، وأنا قد عز علي تأنيثك، فتبا لهم.

انتهت السيجارة.

سيجارة حزينة

(2)

بدأ الأمر يعتاد علي، أو أنني بدأت أعتاد عليه! لا يهم، المهم أنه أصبح جالباً للرتابة حقاً.

أحس أن البانجو وحده لم يعد يكفي حاجتي، أو أن كمّ المشاكل في حياتي أكبر من أن تحتويه سيجارة محشوة.

لنشعل واحدة..

أنت تعلم بعض ما سيقال هنا سلفاً، وتعلم ألا مكان للحياة الوردية في بوحي. تراهم كلهم يقولون كم أنهم

عظماء، سعداء، قريرون بما وصلوا إليه، ثم تأتي إليّ ليلاً لتقف على أطلال رجل مضطرب.

أنا لست مثل الآخرين، لست مثالياً، أنا شخص سيء، سيء جدا، سيء لدرجة أنك ستكرهني عندما تعلم من أكون حقيقة، حينها لن يشفع لي كل قربان قدمته حتى أبدو رجلاً عادياً مثلكم.

هنا تتبدد كل الأسئلة، تصبح كل مشكلة في الكون سخيفة للغاية، ولا يبقى غير السؤال الوحيد الخالد: من أنت يا يوسف!

إنني ضيف الليل، ألعب الشطرنج بأحجار بشرية خالصة، وقبل أن أحترف اللعبة قتلت شخصاً وقتل أمامي

آخر، وقبل كل شيء كنت أرتدي كوفية، وبعد كل شيء سأنتحر.

وأنا أكرهكم جميعاً عداه هو، لأنه نشأ مثلي، وكبر معي، فإن غدرني فهو معذور، وإن أحبني فهو مجبول، أما أنتم فمجرد كاذبين، مدعين، ينهض الواحد منكم صباحا ليختار أي لون زائف يصبغ به يومه، ثم يتذكر أنه في النهاية محاط بآخرين مثله، مزيفون لا نفع يرتجى منهم، فيرجع إلى هؤلاء المسخوطين، أمثالي، يستجديهم معروفا ما.

تسألني عن الحب فأجيبك ألا امرأة في الكون يمكنها الصبر على رجل سيء مثلي، وانتهت السيجارة..

سيجارة حزينة

(3)

تنويه: محتوى هذا النص قد لا يناسب جميع أصناف القراء.

أحس أنني أتخذ قرارات أنا في واقع الأمر مجبر على اتخاذها، وأن ساعات التفكير والتشاور ماهي إلا محاولات بائسة تقود في النهاية إلى الطريق الموسوم سلفاً، لذلك لم يكن لي في الحقيقة خيارات متعددة أنتقي منها ما يلائمني، وبذلك فإن جل ما ستقرؤه تالياً أنا لا ألام عليه بشكل أو بآخر، لأنه كان دائماً الخيار الأوحد!

كان من بين خياراتي الوحيدة أن أشتغل مع عبد الرحيم، ونتقاسم بعض الذنوب، أنا آخذ ذنب تدخيني للبانجو، وهو يأخذ ذنب إحضاره كل ليلة فتاة ليل يقضي وطره منها ويتركها تبيت عندي حتى الصباح، فتنصرف دون عودة.

في إحدى الليالي أحضر عبد الرحيم فتاتين، واحدة أحسبها في العشرين، والثانية كانت نعيمة!

لست أدري ما الذي كان يمنح أي رجل ذلك الشعور بالانجذاب نحو أنثى مثل نعيمة، فقد كانت عجوزا على أعتاب الستين، يمكنك أن تعرف أنها أمضت معظم حياتها تعاقر الخمر من خلال أسنانها وشكل ابتسامتها، لذلك

فعندما مثلت أمامي، عارية تماما، بتينك النهدين المترهلين من أثر الكبر، فإنني أفقت مباشرة من أثر المخدر، ورحت أنهاها أن تحرجني أكثر أمام العشرينية التي أحضرتها معها.

هي تعلم أنني زاهد في موضوع الجنس هذا، وأن لي فلسفة مختلفة عنه، فأنا أجزم أن هناك فرقا بين الحب والجنس، فالحب للبشر، والجنس للحيوان، وأنا لا يمكنني أن أمارس الحب مع فتاة لا أحبها ولا تحبني. لكنها هكذا، تحب أن تغوي كل ذكر يرميه القدر في طريقها، وتتفاخر عندما تضاجع عدة رجال في يوم واحد، وتحسب عددهم، وتتذكر ذاك العدد لتقارنه وتسعى لتخطيه مستقبلاً.

نعيمة بالنسبة لي قد وصلت إلى نقطة اللاعودة، تلك اللحظة التي تدرك فيها ألا شيء يمكن إصلاحه الآن، فتتظاهر بأنك لم تدرك واقعك، وتستمر في الاستمتاع به زيفاً، وتبكي حالك كلما خلوت بنفسك.

إنها تحتاج معجزة من نوع ما، أو رجل دين، أو ربما تحتاج فقط لقراءة الآيات الأولى من سورة النور.. لست أدري، كل ما أعلمه أنها قد أزالت عني أثر المخدر، وأن علي تحضير سيجارة أخرى.

في السيجارة الثانية كانت نعيمة ترقص رقصاً شعبياً وهي تدوّر قطعة من لباسها الداخلي بيدها الممدودة لأعلى مثلما يرقص الفلاحون بعصيّهم، وكانت لا تزال عارية.

انصرفت عنها إلى سيجارتي المحشوة، كم هو رائع هذا البانجو، يُذهب العقل إلى حدٍ تتساوى فيه المشاكل تحت قدميك، وتتضاءل، فتختار أحدها، وتكبّره، وتبكيه أو تفلسفه، أيهما جاء أولاً.

وأنا كنت أفلسف موضوع كل نعيمة في الكون، أفكر كيف يمكن للمرأة، حتى لو كانت فتاة ليل، أن تنقص من قدرها كل هذا الحد، فتعرض نفسها على رجل ما عالمة أنه لا يريدها، كيف تتعرى من كل مبادئها وملابسها بتلك السهولة، وكيف يمكن لرجلٍ عاقلٍ أن يلمس امرأة دون أن يحبها.

أنا أعلم أن بلدي فيه من الإناث والذكور الجائعات والجائعين ما يكفي لإعمار بلد آخر! ولكن، ألهذا الحد تسيّرنا أجسادنا؟ أقول هذا لأنني شاهد على أن ثدي نعيمة المترهل، وجسدها المملوء بالتجاعيد قد فتحا لها أبواباً، وحققا إنجازات ربما لم تكن امرأة أنهت دراستها الجامعية في تخصصٍ نادرٍ لتحققها!

اقتحمت عزلتي تلك الفتاة العشرينية، كانت قد جلست بجانبي منذ دقائق دون أن ألحظها، فسمعت تمتماتي مع نفسي، وربما تكون تذكرت نفسها، وحالتها، وأين كانت وكيف أصبحت.

كانت عيناها تقولان كل شيء، إنها فتاة منكسرة، آثمة، نادمة، وتحتاج حضناً، ولأنني الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب دائماً، كان أن احتضنتها بذراعي وأسندت رأسها على كتفي، وجلسنا على حافة البؤس نتقاسم آخر سيجارة محشوة، هكذا فقط، دون أن نتكلم، لأن الأرواح أحيانا تتكلم، والعيون تتكلم، والجراح تُرى، والأجساد تهون، فلا تعود أمامنا حاجة للكلام.

في الصباح وجدت نفسي وحيداً، وعلى الطاولة أمامي رسالة كتبتها تلك الفتاة على عجل...

يوسف،

في الدرج الأول من المكتب ستجد دفتراً، إنه لي، لأنني مثلك، أكتب شعراً ونثراً، غير أنني فتاة آثمة، ملعونة، فلا أستحق هذه المَلكة.

حضنك ذكرني أن هناك أشخاصاً طيبين في الكون، نراهم ولا نعرفهم، حضنك على لطفه وحاجتي إليه قد جعلني أدرك حجم حقارتي، وأنني لا أستحق أن تحتضنني أسرة، أو يحتويني رجل.

لا أعلم كيف يمكن أن أواصل حياتي بعد هذه الليلة، فأنت لم تتركني قادرة على الاستمرار في كوني (.....)، وأنا لا يمكن أن أرجع فتاة طبيعية. ربما سأنتحر، أو أبحث عن

عمل، أو أدخن البانجو.. مثلك أنت، كل ما أعلمه أنك غيرت عدة مفاهيم في حياتي، وأخلطت حساباتي.

عدني أن تحكي للعالم حكايتي لو حدث وأحسستَ أني لم أعد بينكم في هذا العالم. أشكرك على كل شيء، وأتمنى ألا نلتقي مجدداً.

ف،

أيها الحب

"لو كان الفقر رجلاً لقتلته"..

لو كان الحب رجلاً لاستوقفته، كنت لأحكي له أن الرجال عندما يبكون علاقةً ما فإن هذا بسببه، وأن الرجال المعلقين بحبٍ يائسٍ يبكون كثيراً، ويعتذرون كثيراً، ويقدمون له من القرابين ما يسقي واحةً قاحلة.

أيها الحب،

أكتب لك من خلف ذاكرتي التعيسة معك، أتلمس الشقوق التي خلّفتها على قلبي، وألعنك. لا تسألني عنها حباً وكرامة، لأنها استشرفت ما قد يكون حتماً، فراحت

تدوس رجولتي، وتلعب على وتر مشاعري. أعلم أنها ستبكي قليلاً، وتحزن، وتخبر صديقاتها كم أنني رجلٌ شرقيٌ ترك أنثاه في عز حاجتها إليه، وفي النهاية ستكرهني، ويكرهنني.

أيها الحب،

لا أحد غيرك يعلم حجم النكبة، وكمّ الدموع، ومساحة البوح، وحجم الشوق، وعدد الأوراق، وجفاف الأقلام. لا أحد غيرك وقف على حجم مصيبتي يواسيني ويمسح على رأسي ويخبرني أن القادم أجمل.

سيقيسون الأمر بميزان أنثى جزائرية، دائماً ما تخرج مظلومة من أي علاقة، لا أحد يعلم أنها جرحت رجولتي

إلى حدٍ يحتج فيه كل رجال العالم، لا أحد يمكنه أن يقيس حجم صبري، ورغبتي في البقاء معها، وحبي لها، حتى وأنا أزف لك هذا البوح الأحمق.

أيها الحب،

هل يمكنك أن تنشز قليلاً عن قاعدتك الأسطورية في ملاقاة شخصين وعدم التدخل بينهما، وتتدخل، وتنقذ هذا القلب المريض، المليء بالشقوق، والنكبات، وأثر التدخين؟ أيمكنك أن تحمل كل وجعي، وآرائي، وطلباتي، ودموعي، وتضعها داخل قلبها مباشرة، دون أن نضطر لإشعال الحروب، وإلقاء القنابل، وحرق الأرض المثمرة قلوباً قلوباً.

وأنا أحبها، وهي بعيدةٌ بعيدة، وأنت من همسي قريب.

يوسف،

حفل تخرج

هذا الكلام الذي تقرئينه كان يفترض أن يقال في حينه، عندما كانوا يبتسمون لك ويهنؤونك بتخرجك. أنا كنت هناك أيضاً، رأيت بعض المهنئين، وتخيلت شكل بعضهم الآخر، وليس بي يقين أي تهنئة جاءت صادقة أولا، وأيها أسعدك أكثر، كل ما أعلمه أنني أكتب هذا متأخرا، كأي عاشق عربي كلاسيكي ينتظر فراغ الأهل والأحبة والزملاء

والجيران وحكايا البنات وكل مشاكل العالم من محبوبته لينفرد بها، ولما لم يكن لي ذلك جسداً، انفردت بكِ كتابةً.

أحب أن أعترف أنني دخنت كثيرا، وبكيت قليلا، وسرت في جسدي قشعريرة من نوع ما، لأنك قد تخرجت أخيرا بتقدير يدعو للحسد، وستصبحين في يوم قريب أتمناه لك، دكتورة، ولم تكن لك وسط زحمة النجاحات تلك فرصة لتنظري إلي بفرحٍ، وكان أن بقيت واقفاً على حافة دهشتي أحاول كبح دموعي، أبحث عن سيجارة يائسة في جيبي فلا أجد غير رسالتي التي كان يفترض أن تقرئيها عندما نلتقي وسط ذلك الزحام.

تفاصيل كثيرة كانت لتتغير لو أنني لم أمارس طقوس حبي وشغفي بصمت، ولو قُدّر لهم أن يضعوا راداراً يقيس ضربات القلب جنب عرضك التقديمي لاندهش الأساتذة وانصرفوا من تحليل مذكرتك إلى تحليل أسباب ارتفاع نبضاتي مع كل هفوة لفظية، أو ملاحظة طائشة.

إنني إذ أتمنى لك خالص التوفيق، فإنني قد أيقنت أيضاً أن عائلتك وصديقاتك وزملاء دراستك وأشخاصا يعلم الله من أين قدموا، كلهم استحقوا ضحكتك ونظراتك والقليل من وقتك، وأن كل هؤلاء يلهونك عن الشخص الذي قلت له ملء فيك "أنت حياتي"، ويجعله يتقلص من حياة كاملة إلى رجل يقف بجانبك يتأملك سعادتك ولا يبالي بنفسه إن تضاءل هو أمام عظمها.

وأنت صبحي وممساي، ومماتي ومحياي، وآخرتي ودنياي، وأنا أحبك.

يوسف،

واحد بدل ثلاثة

(1)

كنا اثنين، ثم أصبحنا واحدا بدل أن نكون ثلاثة!

هذا الوضع يقتلني، يحملني على التصرف بعشوائية مقلقة، مثل أن أتجرد من كل ملبس في ليلة باردة وأفكر في تقطيع الورقة المعلقة على جدار بغرفتي "عقوبة تارك الصلاة"، لأن كل صلواتي وابتهالاتي لم تفلح حتى الآن في تكوين المعادلة الصحيحة، وهي أن ثلاث نطف لا يمكن أن تُختزل في نطفة واحدة مهما غيروا في جينات البشر.

هل أصلي أكثر؟ أم أترك أظافري تستطيل وشعري ينتكش مجددا كنوع من جلد الذات على مصير أحمّل نفسي مسؤوليته دون أن أتدخل في تشكيل معالمه المقرفة.

لا شيء تغيّر في حياة الرجل البائس...

نفس اللحظات الموحشة، ووجع القلب، والضحك على ثلة المنافقين المتوجهين لأداء الصلاة وهم يحاولون عبثا أن يطهروا قلوبهم بمسك ممزوج بماء الحنفية.

لا شيء تغيّر عدا أن الألم أصبح فعل أمر مبنيا على كل حدث صغير، والمفعول فيه أصبح معتلّ القلب والبدن.

***

إن الكاتب رجل تعيس جدا، ولابد أن يكون مفجوعا. إنه يلملم أوجاعه ولحظات سهره وانهياره ليصنع منها كلاماً لا يفهمه أحد، ويضيف على ذلك بعض القواعد التي سنّها الأولون، ثم يقف أمام ثلة من الأصحاء محاولا إقناعهم أنه فن من الفنون وليس رئة ثالثة في جسد منهك، ويجتهد في ذكر آيات الحكمة...

واحد بدل ثلاثة

(2)

كنا اثنين، أحدنا شردته إحدى عشرة سنة، والثاني يكتب له أن يتشرد في يوم الامتحان الكبير، لأن الكبار يا سيدي لا يعترفون بظروف الأعداد، فيضربونها ويقسمونها ويختزلونها في واحد بكل ما آتتهم الحياة من قدرة على الهروب، والنكران، والنبذ!

من الغباء أن يجلس رياضي ما بنظارته الكبيرة ويختزل ما شاء الله من حيواتنا بكل وحشية ثم يفتح هاتفه ويقرأ هذا ويبتسم بدهاء، لأن الخطة الكبيرة قد بدأت تؤتي أكلها،

وهاهو الرقم اثنان يتبع الرقم واحد في ترتيب الأعداد الممنهج نحو الكرتون الممد في آخر الرصيف ينتظر من يفترشه.

كل شيء يسير وفق الخطة، تماما مثلما اتفق قبل ألا يتفق.

كل شيء على ما يرام، جميع الأعداد تنتظر دورها بصمت وإذعان عدا الرقم الأول الذي لا زال يتخبط بين عصيان وبكاء، دواخ وصراخ، تمرد وجفاء، ولم يعد هناك ما يؤنسه إلا سيجارة أخرى يضعها في فم تشتاقه أفواه النساء، وتنبذه آذان الرياضيين والعلماء.

لم يعد هناك أجزاء للحكاية، إنها ملحمة تولد، بطلها ليس كاتبي، وليس أنا طبعا، وليس أنتم.

من الغريب أن تخترق شخصية ما دفتي كتاب وتخرج منه لتخاطب القارئ علنا، هكذا خرجت أنا، ولم يكن خروجي إلا لأكمل جوانب النقص التي أهملها كاتبي جهلاً وتغطية عما يجب أن يقال.

يبدو أنني اخترت الرجل الخطأ ليكتبني، ذلك أنه قد تغاضى عن تفاصيل مهمة، وأسهب في سرد أخرى يؤلمني تذكرها، ربما بحسن نية، أو ليمارس علي سلطة القلم التي يملكها هو.

لقد أخبرته، كاتبي، أن يكتبني كما أنا، ويورد في مجمل ذلك أنني، يوسف، لن أسامح محمدا وفاطمة، وربما يكون

قد توجس خوفا من أعين الرقابة فلم يصرح عن ذلك علنا، كأحمق اعتراف يكتب في الدنيا.

إنه يلعب دور الكاتب بامتياز، فراح يقسمني فصولا وأجزاء، غير عالم أنها ملحمة تولد، وألا نهاية لها إلا بموتي، أو بموته، أو بانتحارنا المشترك من أعلى جبل بني في سيرتا.

فلتنصرفوا جميعكم عن هذا النص، ولتتركوا لي حرية التعري بين أحرف هي ملكي في الحقيقة، ولتشكروا كاتبي عنها نهارا، وتكتبوا أجمل ما يقال عن الأدب والأدباء، ولتحترموا رغبة الرياضي العظيم في قراءة هذا صامتا، ولتمنحوه كامل الحق في العناية بانعطافات الرقم ثلاثة، ونبذ رقمين يسبقانه بأعوام... هكذا أنتم...

منافقون...

حمقى...

وأنا بريء منكم إلى يوم يكتشف كاتبي هروبي، ويعيدني إلى هناك: إلى الصفحات الصفراء صفارة الكرتون.

يوسف،

صغيري المجنون

إنكم -بأدوات فهمكم القليلة- لا تستسيغون أمثاله فتسمونه مجنوناً مجازاً، أو ربما ألصقتم به صفة الأدب، ألا يقول التاريخ أن المجانين يتفوهون حكمة؟ فلابد إذا أن الحكيم أديب أيضاً. ثم إنكم لو فعلتم تأخذون بديعه سراً، وتتركون بعضه وتنكرون غريبه جهاراً، فتبا لكم!

لا تزال صورته تحضرني وهو على حافة الطريق يمرغ يديه في التراب راسماً مربعاً فوقه مثلثا داخله أربعة وجوه سعيدة، قبل أن يأتي من لا أبلغه إلا بشق الكتابة يبصقه بكل ما أوتي من مبادئ.. ويمضي، ويأتي آخرون ليلاً.

أراهم جميعاً، وتتلى علي أسماؤهم تباعاً:

صالح.. بائع البانجو.

حمزة.. الشاذ.

يوسف.. شريك حمزة في شذوذه.

سيد احمد.. مروج الكحول.

توفيق.. صانع السيوف والخناجر.

نعيمة.. العاهرة العجوز.

بعض السراق الذين حفظت ألقابهم.

وحفنة من حراس الجنة.

و"حس-ألف كرهة وكرهة" يعلو صوته من نافذة ما.

وآخرون يا صغيري.. وآخرون.

"سويسيدار.. الموت ولا لاميزار"

لا تبك يا صغيري،

أنا معك، أراك خيالاً أؤمن به. فلنحسب معاً من جديد كم يدا امتدت على وجهك الملائكي، عدد الدموع التي سالت على خديك، مجموع السجائر التي دخنت، والسنين التي صمدت، ولنجمع كل شيء بين دفتي كتاب ونذهب به إلى أعدل حاكم في الكون، وقبل ذلك لنبارك بعض الأحداث المهمة!

فلأتوقف عن تلاعبي البائس بالعواطف هنا، ولنبارك لك جميعنا قراءتك الأولى، وعهدتك الثانية، وضحيتك الثالثة، وأرضك الرابعة، ووسادتكم الخامسة، وحقبتك السادسة. ولنكمل أهازيجنا ونبارك لك مقدما القراءة السابعة، والهجرة الثامنة، والجملة التاسعة من القائمة السابقة بالسطر العاشر.

ولتعد إلى مثواك الآن قريراً بما حصدت، فخوراً بما قدّمت، ومت مثلما تموت السجائر بحقارة في فم صغيري، وخذ لو تشاء ماضيك وحاضرك ومستقبلك معك، فلا صحون لنا، ولا ملاعق، وليس لنا بذلك ما نقدمه لهم عدا ما زاد عن حاجة صغيري من "قلب اللوز" وسجائر الريم الرخيصة.

يوسف،

حرفة التبول على الأدب

لنتلاعب قليلا بهذا النص، فلنجعله أقل حدة من مثيلاته الأكبر سناً.

لن تفهمني وأنت جالس تنظرني من وراء هاتفك، لأنك لن تتمكن من لمس الجرح الغائر بيدك. هذا النص يُقرأ وأنت قاب حبلٍ أو أدنى من الانتحار، تقرؤه بيدين مرتجفتين ثم تتخذ أحد القرارين الوجوديين: أن تكون، أو لا تكون.

هل حظيت بانتباهك، هل بدوت لك لوهلة رجلا عميقا يجيد وصف الأشياء من حوله؟ أنت مخطئ!

لا شيء هناك في الحقيقة، لقد تلاعبوا بي طفلا ومراهقا وشابا، وعندما لم أجد ما أحتفظ به لنفسي أخذت حرفة الكتابة وجلست على كرسي اليتم أرميكم فتاتها من حين لآخر... تأخذون بعضه، وتنكرون بعضه، وأنا لا يهمني الأخذ والنكران، منذ متى يهتم الناس إن كان الحمام يترك فتات الكلام أم يأكله، أم يلوكه ويبصقه؟

حسنا، بدأ هذا النص يصنع لنفسه مساراً غير الذي أريده...

ثلاثة ثلاثة، ثلاثة.. كابوسكم ينقص نقطة بين السين والكاف لتكتمل الصورة!

فلنذهب جميعنا إلى مقاهي الانترنت لنشاهد الحفلات الدموية ونقرأ كيف كان أفلاطون يختار الغلمان لجنس عابر بدل هذا البكاء المذل على الأوراق. قداسة الكلمات زالت مع تهافتكم وعادت نصوص الأولين تُكتب بلغة لا يفهمها البشر القريرون ببشريتهم، أمثالهم أمثالكم، لنا ما لنا وليس لهم ما قالوا أنه لهم، أنّى لهم؟

هل بدأت تفهم؟ أنا لم أبدأ الكتابة بعد، كلها أنصاف أفكار جمعها مَني واحد في رحم نص كان عاقرا قبل أن أتعرف عليه منذ ثلاثة عشر عاماً... ولا يزال يسألهم عن خاتم خطوبتي!

ربما لا يتبع، لأنك سوف تختار قرار ألا تكون الآن، وأنا أيضا... وأنا أيضا.

يوسف،

مقدّر لك أن تموتي قريباً

مقدّر لك أن تموتي قريباً!

لا أقول أنني انزلقت وراء السماء السابعة وسمعت ما يدور هناك من حوارات، أنا فقط أضع على طاولتي كل الاحتمالات الممكنة، ثم أقتل بيدين عاريتين كل احتمال ضعيف، فلا يبقى غير القوي في ساحتي، دائما ما يكون البقاء للأقوى، حتى في قائمة احتمالات.

إنك تعيشين أيامك الأخيرة بنفس عهرك المعتاد، لا تزالين في تغنجك وتقلبك أمام كل رجل تلتقينه، لا زالت

عيناك تبتعدان أكثر من اللازم، ولا زال بعض ضحاياك أحياء ليكتبوا قصصهم بدم خيانتك.

بالتأكيد أنت تذكرينني، أقول هذا بعد كمّ منشوراتك الحزينة على فيسبوك، والموجهة إلي من الأساس. لقد نجحت أخيرا في أن تكوني كاتبة، لأن ضحاياك قد شكلوا من أجلك سلّما في نهايته جائزة زائفة كانت تنتظرك مثل أفعى غادرة، لتحكم عليك التفافها، وتمتص منك آخر بقايا عذريتك الصامتة.

أنا أيضا أحتفظ بذكرياتي معك، يحضرني صوتك الخائف وهو يأتيني عبر الهاتف، لأن أباك السكير يضرب أمك المسكينة. لم يكن أرذل شاب في الكون ليلتفت إليك

في تلك المرحلة من حياتك، غير أنني فعلت، وتوقفت، وقررت أن أجعل هذه الماثلة أمامي زوجة لي.

لم أكن أعي ما يحدث وسط غمرة حبنا، لم أع أنك كنت تنفلتين من يدي بهدوء، بدءا من حلمنا المشترك الذي أحرقته أمام رجال الدولة، وعيارك الشهير: "أنت ما تفهمنيش"، وصولاً إلى حمل أغراضك فجأة ومغادرتي دون رجعة.

لم أكن أفهم ما حدث حينها، غير أنني عندما نظرت إلى السلم الذي بنيته على أنقاض رجولتي فهمت كل شيء، لأنني قدمت لك حباً، وهم قدموا ألقابا ومناصبا، فكان أن

أصبحت مهددا بالحبس لأجل حلمي، وكان أن أصبحتِ علكة يلوكها فم ثم يتركها لآخر.

لهذا فأنت مقدر لك أنت تموتي، لأن اليوم الذي تعتقدين فيه أنك قد كسرتني هو تاريخ توقيع إعدامك!

قال نيوتن أن لكل فعل ردة فعل، مساوية له، معاكسة له في الاتجاه، وأتى أينشتاين ليثبت أننا نحن البشر لا ننشز عن هذه القاعدة، وأخيرا أتيت أنا لتعلمي أن فعل حبي قد بلغ ذروته، وأن عليك تحضير نفسك لفعل كرهي المساوي له.

والسلام عليكم يا أهل الديار.

يوسف،

إلى الرجل الذي لا أبلغه إلا بشق الكتابة

السلام عليك أيها الرجل الذي لا أبلغه إلا بشق كتابتي، أما بعد فإني أكرهك وأكتب لك هذا لتعلم ما أنت جاهله.

أقول أني لا أحبك، وأنك سوف تندم لاحقاً، متأخراً بضع دقاتٍ عن حبه لك أخيرا، لأنني يسّرت لك الطريق، ونزعت منها كل مطبّة مزعجة، وجعلتها ورواداً سرّت كل ناظرٍ عداك أنت، فكان أن اخترتُ لكَ تمسكك بما انقضى وأضحى من الواجب معالجته، وكان أن أضفتَ على قائمة

سخافاتك، سخافة مستقبلية، تترقبها أنت، وأكرهها أنا بكل ما أوتيت من شر.

إنك تكرر نفس الخطأ ببلادةٍ من يكرره منذ عشرات السنين، وأنا الكاتب لك، الذي ملّ وكره انتظارك، ونفض يده منك، لأنك -بكل اختصار- لا حاجة بعده لأي تبرير من أي نوع: لا تستحق منزلتك..

لأنك تستبدل روحاً بروحٍ وسط لعبةٍ قذرة تلعبها أنت وزميلك الجديد القديم، يتركَكَ القدر مرة تختار من تحيي، ومن تميت، فتختار أن تقتل نفساً لتخلق أخرى.. أي عتبى ترضيني، وأي عتاب يكفيك!

في نهاية الأمر أحب أن أذكرك بأن الله، والمجتمع، وأنا، وهو سوف نحاسبك كلنا، وأنك سوف تركع أمامنا طالباً صفحنا، راجياً سعة قلوبنا، وإني قد بدأت أعد من أجلك طاولة شطرنج، ولم تعد تهمني عواقب ما أفعل طالما أنه يبدو لي مناسباً، وإني أتمنى لو تهتدي قبل أن تحترق، وأن تفهم، قبل أن ألعب معك آخر لعبة عندي، ويموت الملك، وتبكي ملكته، ويفنى مُلكه.

والسلام على من تنكّر لماضيه طلباً لزيفٍ يرضيه.

يوسف،

جواب كتابي

على البسيطة ما يستحق أن نقف عليه، ونتأمله، بذلك فقط تزداد مداركنا وحكمتنا، وإن هذا الذي أكتبه ما هو بضعف، أو هوان، أو خوف، وإني لم أكن لأخطّه لولا أنكم أعييتم من سبقكم إلي في شرّكم.

أما بعد فإني كنت قد نفضت يدي منكم، وترفعت عن الرجوع إليكم ومراجعتكم، وجلست وحيداً أعالج الشرخ الذي أحدثته ذكرياتي معكم في داخلي، وبرأت منه، وليس بي نيّة الرجوع إلى أمر قد قضي واستحال العدول عنه.

وأما تهافتكم الأول، فإني جلت مدنا، ودخلت أسواقا، وزرت ديارا، ولم أر التهافت إلا على ما غلت قيمته، وندر وجوده، وقل مثيله.

وأما تكالبكم على طاولة الشنق والقرارات فإني لم أر غير مجالس النسوة يغتبن غائباً، وإنكم كنتم لتطلبوا في أثري لتجلسوني بينكم لو وجد بينكم رجل رشيد، لكنه مناخكم هكذا، يميت الرجال ويحيي أشباههم.

وأما نباحكم اليوم فإنه يأتي خافتاً لسامعه، يتراءى لي من بعيد كشبحٍ هائمٍ على وجهه منذ بدء الخليقة، لأنه فعلاً كذلك، أو لأنني في قصري أعلو موضعه.

وأما ردي فإنني هذيت في سجودٍ أن يبعد الله عني كل ظالم، ويظهر الحق، ويجزي كلاً جزاءه الذي يستحق، وإني -قبل أن أغادركم- كنت قد دسست سمّي بينكم، وجعلتكم تتلقفونه وأنتم سعداء، وإني لو عددت كل ما أملكه من قيئكم وسعالكم لوجدته كافياً لأجعل كل كلب منكم يكمل حياته في أبعد نقطة بهذا البلد، وإنكم إن كنتم قد اجتمعتم على ألا تتركوا مسألتي فإني لست بمغادرٍ حياتكم، وحياة أزواجكم، وأولادكم، وجيرانكم.

يوسف،

إليه... وحده

كان يبتسم بصمت، وجهه الباسم ذاك لا يمكنك أن تنساه بسهولة، إنه يخترقك، يتسلل إلى داخلك، يترسب هناك في العمق الأخير مثل ركام السكر في آخر الفنجان.

صدقني عندما أقول أني لم أعتقد في حياتي أنني قد أبدو بهذا العري أمام أشخاص لا أعرفهم، ولكنه حبك، أو ربما حماقتي.

أكاد أجزم ألا أحد في الكون يمكنه أن يفهم تفاصيل حبنا، وشكل حاجتنا لبعضنا، فأنا أحبك قولاً وفعلاً، وأنت تظهر لي حبك من حين لآخر.. فعلاً فقط!

إنهم لا يلحظون تلك التفاصيل الصغيرة، يمرون عليها كما يمر شاب ما على مسجد الحي، أما أنا فأتأمل، وأدخل، وأصلي، وأؤدي طقوسا لم يعهدها إمام قبلاً.

لذلك فإنك، على صغر سنك، قد لاحظتني وأنا أتناول نفس الكأس الذي شربتَ منه، ونهيتني، وأخبرتني أن مرضك قد ينتقل إليّ بفعل شربي.

وأنت لا تعلم أنني بعد رحيلك شربت به قنينة كاملة، أحب أن يعلق بي شيء منك ولو كان مرضاً.

أود أن أصف كم أنني دخنت بعدك كثيراً، حاولت عبثاً أن أبدو بمظهر الرجل العادي، ولما لم أستطع أغلقت كل

شيء ورحت أبكي وأضرب الطاولة القابعة أمامي بساديةٍ مرضية.

كنت فيما مضى أقص أحاديث كهذه لأشخاص أعرفهم.. أحبهم، ولما لم تفهم عقولهم القاصرة شكل علاقتي بك اخترت البوح الأحمق لآخرين يعتقدونني كاتباً ينافس على منزلةٍ زائفةٍ من نوعٍ ما.

فلأمرض إذا! ليتسرب مرضك إلي، وليمتزج مع النيكوتين القابع هناك داخل رئتي، ولأشنق أمام صورتك الباسمة، ولأمت شهيداً في سبيل حبك.

يوسف،

الوداع قبل الأخير

أما بعد فإني مفارقكم، وإنني أكرهكم جميعاً، ولا أنتمي إليكم، وما من قطعة مني متواجدة بينكم غير جسدي الذي أضعفته المضغة، ورئتاي اللتان أنهكهما الدخان، أما روحي فهناك في الأفق البعيد تنتظر يوم الشنق الموعود بصبرٍ وروية، وإنه لقريب، وإن يوسف يقول ذلك، وأنا أصدق يوسف وأكذبكم جميعكم، لأنكم في النهاية فانون، زائلون، ومنافقون، أما يوسفُ ففيه من الصفات ما يجعله منزهاً على أن يكون محل مقارنة معكم.

أما أنا فلستُ بناقشٍ على الورق، وإنها ليست حرفتي، وإن ما تراه أعينكم القاصرة يملى علي فأكتبه، ثم أتلوه زيفاً بصيغة الكاتب الحذق.

وأما أنتما فلم تتركا لي منفذاً ينفذ منه عفوي عنكما، وإني لأراكما تحترقان كل ليلة، وأن يوسف يصب عليكم ناراً، وإن لي معكما كلاماً لا يقال في الحياة الدنيا، ولا يُسمع في مجلسٍ يُنبذ فيه همس الأطفال، ويكره فيه خدش الثوابت.

وأما الصديق فقد مات وقضى نحبه ومشى إلى قبره وبدأ الدود يسكن لحمه وينهشه، فاستحالت ممارستي لفعل الصداقة بعده، ولم تعد بي حاجةٌ لبشريٍ آخر يقتلني كمداً قبل أن أقتله قدراً.

وأما أنتِ فأعلم أنك راحلة لا محالة، هكذا قال يوسف عندما التقيته اليوم على حافة دهشتك، وقد أوصاني ألا أنقض عهد حبك، ولا أدع غيركِ تسكن القلب المريض، أوتضع عليه خربشاتها، أو تمارس فوق أحاسيسه تبتلاتها، وهذا لحكمة يعلمها هو، وأؤمن بها أنا.

يوسف،

в е ч е р а

لماذا تغريني وأنا لا أفهم ما تقوله أصلا يا رؤوف، أقرأ الترجمة الآلية الركيكة وكلي تأثر بما تمنحني إياه من الفهم.

لا شيء يؤنسني طيلة ثلاثة أيام غيرك أنت وطيف حبيبة، أحس أنني بائس مثلك، وربما أكثر منك، لأنني تيقنت بعد أن لبثت نوبتي هذه المرة ثلاثة أيام كاملة أنني كنت أؤجل قدرا محتوما فقط.

القدر الذي كان عليه أن أختاره قبل ست سنوات، عندما تحول العنصر الثامن والعشرون إلى جثة كان علي أن أحملها عدة أميال لتحظى بدفن لائق.

منذ تلك الملحمة أصبح ستة وعشرون شخصا يبدؤون يومهم بجرعة مهلوسات قانونية، الثامن والعشرون في علم الله وفلكه، السابع والعشرون تحول إلى مجرد يوسف يكتب هذا بيد مرتجفة وعين دامعة على الخامسة صباحا.

أكان علي أن آخذ الحبوب مثل البقية؟

قال طبيب المجانين حينها أن أي مشكل بسيط سيؤثر علي كثيرا إن لم أبدأ العلاج، للأسف أنا لم آخذه، ولم تكن مشاكلي بسيطة يوماً.

الجميع ينسى عني وأنت.

أشعلت جميع الشموع الأخيرة..

كل ما أراه: دخان العثة والسجائر.

مشوهة الزهور، حيث توجد رائحة لك.

لقد تركتهم لي.

لقد تركتهم لي.

كم أنت بارع في وصف وجعك يا رؤوف، أعلم أنك لا تقرأ آراء المستمعين أصلاً، لأن كلمة "رائع" لم تكن مناسبة لوصف الوجع أبداً.

أما أنا فأقرأ كل رأي، وأضطر للرد عليه، لأن يوسف كلفني بهذا منذ اختار البوح الأحمق!

مرت ثلاث سنوات

ثلاث سنوات وأربعة أيام وخمس ساعات..

يقول محمد أن ذنب البوح الأحمق يساوي ذنب إحراق رئتي بجنون، وأنا أود أن أفعلها بأعلى صوت ممكن... صوت الكتابة. لذلك فإن محمداً ستريعه صورة رئتاي لو رأى كيف ابتسمتا في الأيام الأربعة الأخيرة.

لأن محمد، مثل غالبية البشر، يحزن لأن هناك ما يدعو للحزن، ثم يعتمد ضماد الزمن ليشفى من نكتبه تدريجياً حتى يتكون على جلده جرح يابس يؤرخ تاريخ المصيبة وتاريخ الشفاء، جرح لا يلبث أن يزول هو الآخر.

أنا لست مثلكم يا محمد، أنا يوسف!

أنا شخص يختزن الأحزان ليقتات عليها في وقت لاحق. يمكنني أن أرقص السلاو أثناء أعظم جلل في حياتك ولا أتأثر بوجوه المعزين وشكل الكفن واستدارة الوجه المتصلب وغمضة العين الكسيرة.. كل هذا لا يؤثر بي!

عندما يحزن الآخرون، أنشغل أنا بالتحديق بهم وعصر أحزانهم مدة من الزمن، حتى يصبح المزيج مركزا كفاية، فأشربه جرعة واحدة، وتبتسم رئتاي للموت.

ثلاث سنوات وأربعة أيام وخمس ساعات..

هل سددت مقادير حزنك بوفاء يا محمد؟ وهل سددتها أنا؟ إن كنت كذلك فلماذا أستمتع الآن بجمرة روزا وهي تحرق شاربيّ بسادية، ولماذا تنتابني فكرة أن أنتظر دمعة ما لتطفئها.

رئتاي مجددا.. الحالة المعتادة، لا شيء يدعو للقلق أبداً.

أولا تبدأ أعراض الشقيقة في الجزء الأيسر من الوجه، ثم تتزايد لدرجة أن يسيل الدم من آخر ضرس في الفم، ستحمر العين قريبا جدا ثم تبدأ عضلات الجسد بالانقباض لا إرادياً وبعدها يأتيان معاً أو يليان بعضهما، لا أضمن لك... الصراخ والبكاء.

لا شيء يدعو للقلق أبداً...

الوحيد الذي كان ليقلق قد غادر المحطة قبل ثلاث سنوات وأربعة أيام وخمس ساعات، قبل أن ألتقيه للأسف، ومن بعده لم يعد قلقكم أنتم البشر مهماً، ولم يعد هناك داع للقلق، لأنني أصبحت أعلم الآن أي طريق أسلكها لألتقي رفيقي في المحطة الأخيرة.

يوسف،

نص سعيد

هل رأيت في حياتك رجلاً يبكي وهو يكتب نصاً سعيداً؟

إنني أرى الكون بياضاً لا يسوءه غير روحينا المتقابلتين بعد فراقِ أعوام. صدقني لم أعد ضعيفاً مثلما كنت، طالما حاولت أن أستدرّ الحب من أثداء النساء، وعقول الرجال، ولما ابتسمتَ لي أخيراً توقفتُ عن كل شيء، وجلست مشدوهاً لطلعتك البهية.

أسألك لو رأيت في حياتك رجلاً يبكي وهو يكتب نصاً سعيداً..

كنت أعتقد أن صدور النساء تثيرني لأني أفتقد صدر أمي، ولما مثلتَ أمامي علمتُ أن صدري هو الذي يفتقد رأسك المائل عليه، تماماً مثلما كنا نتوسد بعضنا عندما لم يحن علينا أحدٌ قبل أحد عشر عاماً.

هل رأيت في حياتك رجلاً يبكي وهو يكتب نصاً سعيداً؟

لأنني لا أعلم كيف تُكتب النصوص السعيدة، فأنا لم أبتسم صادقاً في غير موضعين: الأول عندما كنتُ رضيعاً، والثاني عندما ابتسمت لي، كل الابتسامات الأخرى إما زائفة أو ناقصة.

لم يعد أي شيء آخر مهماً الآن، سأترك لهم تهافتهم، وقواعدهم، وأدبهم، وزيفهم. سأترك أشلاء النصوص المعلقة، والقضايا العالقة، وأهرب من كل شيء إليكَ أنت.. وحدك، وليتبعني من أحب صحبتي، وليرحل من أحب الرحيل، لم أعد أهتم، ولن تسقط دمعة جديدة إلا في سبيل رضاك وسعادتك.

أجبني إن كنت قد رأيت في حياتك رجلاً يبكي وهو يكتب نصاً سعيداً؟

أنا أفعل، فهل يمكنك أن تقترب مني أكثر لأبكي بُعدنا، وألعن كل من قال أني أحبك أكثر مما ينبغي علي، وكل من فرّق بيننا.

لدي الكثير لأقوله.. سأحكي لك بداية كيف تلاعبت بهم جميعاً، وكيف أصبحوا ينظرون إلي، تماماً مثلما أردت أنا، تماماً مثلما وعدتك عندما كنا صغاراً.

أما ذلك الأحمق فلا تشغل به تفكيرك الآن، إنه منشغل بشهوته الآن، وقريباً سأجعله ينشغل بأمور أكبر، أمور تقلب حياته جحيماً، إنك تعلم كم أجيد لعب الشطرنج بمصائر البشر، ألم نكن -في طفولتنا- نلعب الشطرنج معاً؟

هل رأيت في حياتك رجلاً يبكي وهو يكتب نصاً سعيداً؟

تحضرني ذكرى إصابتك، وكيف أقنعت نفسي أنني أنا المتسبب فيها عنوة، ورحت أكلّمك وأحاول التخفيف

عنك بصوت ممتزج بالدموع. أتذكر كيف أملى عليّ عقلي المراهق ألا أمثل أمامك إلا وبيدي شيء من أجلك، وكيف فرحتُ يوم تماثلتَ للشفاء، ورحت أتحسس تلك القدم وأقبلها، تماماً مثلما يقبل آخرون جباه أمهاتهم.

هل رأيت في حياتك رجلاً يبكي وهو يكتب نصاً سعيداً؟

قف ورائي، فقط قف ورائي، أقسم ألا شيء سيؤذيك، أقسم أن نار الشر لن تصلك ولو أطعمتها أضلاعي.

وأشهق..

يوسف،

امرأة سيرتا

ترميني الأقدار بسعادة بسيطة، ثم تتبعتها بسلسلة من المصائب والنكبات!

لم تعد تهم قواعد اللغة، ولا قراءة هذه النصوص، حتى امرأة سيرتا الناظرة هناك في الأفق البعيد، الواقفة على يم نكبتي، وفي حجرها خارطة تعتقدها تضم تفاصيل مكنوناتي، وهي في الحقيقة لا تحمل إلا ما تركتها تراه... فقط، لم تعد تهم أيضا.

رأيتها اليوم وكانت تبتسم خجلا، ربما لأنها تبصرت من علو مقامها ذاك الشاب الذي كان يقبل حبيبته في فمها وهما على بعد قفزة واحدة من موت محتم.

هكذا هي حريات البشر، دائما ما نمارسها سرا، وإن لم نستطع فإننا نجتهد في أن نبدو منافقين بحجم الموقف.

لا توجد هنا مساحة صالحة للتقبيل، ولا أعتقد بعد ذلك أن هناك مساحة أخرى أمارس فيها نوبة صراخي وأبلل أرضها بدموعي.

تلك المرأة أخبرتني الكثير بعينيها اليوم، غير أن الرجل الذي استوقفني ليسألني عن شبيهتها لم يكن يتوقع نصا

أدبيا أو بوحا غبيا، مجرد كلمات مجاملة محشوة في قالب ابتسامة ساذجة.

لذلك حاولت التملص منه، وعندما لم أجد منه اتقاءً فإنني مارست النفاق... مجددا، ورحت أكذب ما استطعت مدة دقيقتين، وعاد هو لحياته، وعدت أنا لأكتشف بعد سويعات أن حرية فلسفة النساء والتماثيل غير جائزة لي، وأن علي تعويض ذنبي هذا بوجع جديد.

هذا النص ليس صالحا للنبذ أو الإعجاب.. في النهاية لا خيار بينهما يمكنه أن يخيط حلاً بحجم حاجتي. سأبقى أحبها وأتذكر ابتسامتها الخجولة دوما، عالما أني لابد أن أدفع أقساطا أخرى لتسديد هذا الذنب المستمر.

وأنا على عهدي بحبك، وحبه.

يوسف،

خاتمة

عزيزي القارئ،

عندما تصل إلى هنا أكون قد غادرت هذا الكتاب نهائيا، وقريبا أكون قد غادرت العالم أيضا. قلت في رسالة سابقة أني لم أجد طريقة انتحار تليق بي، غير أنني وفي الليلة الثالثة وجدتها أخيرا.

لقد وقعت على مقال جاء فيه أن نقع كمية تبغ تساوي علبة سجائر لمدة ربع ساعة ثم شرب الناتج عنها يؤدي إلى توقف فوري للقلب... طريقة سريعة وغير مكلفة للموت!

سأتحين موعد نوم الجميع، ثم أحضر شربتي الأخيرة إلى غرفتي لأتناولها كيفما قرأتُ تماما: دفعة واحدة.

أكثر ما يحزنني وأنا أكتب هذا أن عمال البلدية سيعافون جسدي كثيرا، ذلك أني لم أستحم منذ شهرين تقريباً، ولم أغيّر ملابسي إلا مرة واحدة، وتجاهلت شعري الذي استطال وبدأ يتخذ لنفسه دوائر صغيرة يستكين إليها ريثما تسعفه يد حلاق ما.

عندما تكون قاب رسالة أو أدنى من عملية انتحار فإن كل شيء يتضاءل فجأة. أستذكر جميع البشر الذين عرفتهم في حياتي: والداي، أصدقائي الذين رحلوا، المرأة التي

أسكنتها قلبي، والسكان الذين كنت أجاورهم كلما جاء قرار انتقالي إلى بيت جديد.

لقد منحت الكثير لهؤلاء، ومنحوني هم أيضا بالمقابل... منحوني أنصاف قلوب، وشهقات متقطعة، وساعات من البكاء الحزين، وقائمة أمراض نفسية، ومرضا عضويا لم يفهمه كل طبيب عاينه، حتى توقفت عن حماقة زيارة الأطباء أخيرا ورضيت به رفيقا لي في محنتي أو حياتي، أيهما جاء أسبق.

حتى الذين لم يرحلوا لم يقدموا لي شيئا، ذلك أنهم عاجزون عن فهم شكل حاجتي إليهم ولو ناديت بها جهرا آلاف المرات المتواصلة.

لا أحد يفهم في النهاية، ولم تعد لأحد حاجة للفهم بعد أن أرحل. يكفي أنني فهمت نفسي وأيقنت متأخرا أن الشقاء قد كُتب علي مرتين: مرة في الدنيا التي سأغادرها بعد قليل، والثانية في المكان الذي أنا ذاهب إليه، لأن فعل قتل النفس محرم في جميع الأديان، حتى عند عبدة الفئران والبقر.

من المضحك أننا لا نتذكر موتانا من الأهل والأصدقاء إلا في مناسبات موسمية مثل العيد، أما الأيام الأخرى فنحن نمضيها سعيا وراء نعمة زائلة، وهذه معادلة خاسرة وجب على علماء الاجتماع أن ينظروا فيها مجددا.

أتمنى ألا ألتقي يوسفاً آخر حيث أنا ذاهب، أنا الذي لم أقدر على استيعاب واحد، ولا أظن بعد ذلك أني مستعد لاستيعاب نسخ مكررة منه.

ولتذكروا مساوئ موتاكم سراً، ومحاسنهم جهاراً.

يوسف،

ساعد يوسف

النسخة الإلكترونية من هذا الكتاب مجانية وستبقى كذلك. مقابل هذا أنت مدعو للمساهمة في جمع تبرعات من أجل استمرار شبكة ندى في مساعدة الأطفال، وكذا لإنتاج طبعة ورقية من هذا الكتاب توجه عائداتها إلى نفس الشبكة.

بإمكانك التبرع عبر التواصل مع المؤلف أو مع شبكة ندى Réseau Nada.

التواصل مع المؤلف

فيسبوك	أيوب بنبري
تويتر/ انستغرام	benebriayoub
البريد الإلكتروني	me@benayoub.com
الموقع الشخصي	www.benayoub.com

صدر للمؤلف